

المرأة في شعر المتنبي

بقلم من علمائه

المدرس بالمدرسة الحديوية

(١) الشعر والتاريخ :

يرى جماعة من الأدباء ، أن يكون تراث الشاعر من الشعر ، صورة تعبر عن حياته ، وقصة تحكى تاريخه . يقرؤه الأديب قمر على صفحات ذهنه الحوادث التى أحاطت به ، والأمانى التى كانت تعتلج فى صدره ، والمؤثرات الضاحكة أو الباكية التى لا يسته . يمر به كل أولئك كما تمر أطياف القصة على سينية (١) الخيالة ، كأنك تقرأ الشاعر فيوحى إليك شعره بما هو الحق من خلقه ونفسه وحياته . فإذا انطوى الشعر على عاطفة مشبوبة ، وقلب مسته لوعة الحب ، فالشاعر فى نظرهم عاشق مدته ، وغزله يعبر عن الحق ، ولا ينطق عن الباطل . وإذا تحدث الشاعر عن الندى والجود ، وأفاض مزهداً فى حب المال ، مرغباً فى شراء الحمد والثناء ، فهو كريم معطاء ، لا يعلق غبار الشح بثيابه ، ولا يحوم طائف التقدير حول مائدته . وهذا رأى مقبول إلى حد غير بعيد ؛ لأن الشاعر لو عرف أن التاريخ من ورائه يرصده ، ويثبت فى صحائفه كل حركة من حركاته ، ويدون فيها ما قدمت يده فى غدوه ورواحه - لنظر فى مرآته ، ونظم من صور الحياة ما يبدو له فى وجهها ، فاستوحى الحقيقة ، ونكب عن الكذب والبهتان ، واستبقى لنفسه من الحياة الصاخبة الزائلة ، حياة أخرى مستقرة خالدة .

يبد أن كثيراً من الشعراء ، لم يفتنوا لعين التاريخ الساهرة ، وميزانه العدل ،

(١) السينية : الشقة الرقيقة . والمراد لوح الخيالة .

فانحرفوا عن جادة الحق ، وصدروا عن غير ما يدور في نفوسهم ، وما تنطق به حياتهم ، وانحدروا في أودية الخيال الكاذب ، الذي لا تجمع خيوطه من لباب الحقيقة ، ولا يبنى هيكله من معدن النفس ، فجرّحهم التاريخ ، وصبغ بالزور والدعوى الكاذبة ما أثرهم .

(٢) أبو العتاهية بين الشعر والتاريخ :

إن شعر أبي العتاهية ، يتحدثنا عنه ، أنه كان يدعو الناس إلى تحرير أنفسهم من رق المال ، ويقرر أنه لا يملك منه إلا الذي ينفق في وجوه الخير ، وأنه ليس يملك ما يحبس منه ويضن به ، لأنه لم ينفقه في مبرة ، أو يجتن منه ثمرة ، ويستحث ذوي الثراء على المبادرة إلى الإنفاق فيقول :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه تملكه المال الذي هو ما لكه
ألا إنما مالى الذي أنا مُنْفِق وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

هنا تتورحمية التاريخ ، ويغضه كذب أبي العتاهية ، فينشر على الناس له صحيفة سوداء مسطرة بالحرص والشح ، ويقول لهم : (إنه حبس^(١) في داره سبعا وعشرين بدرة (أو أربعائة وخمسة آلاف جنيه) لا يأكل منها ولا يشرب ولا يركى ، وكان دائم الحرص دائم الجمع ، شحيجا على نفسه ، لا يشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ، وكان له خادم أسود طويل ، كآته محراك أثون ، يجرى عليه كل يوم رغيفين لا يشبعانه . واستشفع الخادم لدى أبي العتاهية ، بأعز أصدقائه ، لعله أن يزيد رغيفا فأبى ، حتى أهلكه الجوع ، وكفنه في إزار وفراش خلق) فلو ضاع سجل الزمان ، وسير الرجال من يد التاريخ ، وبقي للناس دواوين الشعراء لقد سوا أبا العتاهية ومجدوه ، للأريحية والمروءة التي تفجر من شعره . وتدفق من ثنايا قريضه .

(١) راجع أخبار أبي العتاهية في الجزء الثاني من الأغاني .

(٣) تحكيم التاريخ في الشعر :

من أجل هذا ، فإنني لا أميل إلى الإسراف في الاعتماد على قضايا الشعر ، في دراسة الرجال ، واستنباط أحكام منها ، تكون دستوراً للرأي ، أو رائداً للحقيقة . كما أنني لا أميل إلى أن تتنازعنا الشكوك ، وتتجاذبنا الظنون ، فيما نقرأ من شعر السالفين فيغطي سوء الظن على ذرئ ما فيه من مقاصد تهدي إلى الحق ، وتثير طريق البحث . وإنما أدعو إلى الرجوع إلى التاريخ ، واستلهاام البيئة التي درج الشاعر فيها ، ومعرفة العوامل التي ألهمته ، ثم يقوم تراثه من الشعر بعد ذلك ، مقام الشاهد على ما تنطق به حوادث الزمان والمكان ، فإن استبهمت صحائف التاريخ ، وعميت مسالك بيئة الشاعر ، والتبست علينا حياته فلم نستطع إلى حقيقة أمره سيلاً - استضأنا بنور العقل ، واستنجدنا بروح العصر ، فميز زيف القول من خالصه .

وقد يكشف الشعر عن ناحية من نواحي الشاعر ، ويشف عن بعض ماطوته خفايا الأمور ، وملابسات الحياة ، في حنايا صدره ، فلم يتجاوب في الهواء صده ، ولم تتناوله أقلام المؤرخين ، ولكن ذاع سره في تضاعيف السطور ، وسطعت رائحته من أكام القصائد ، كما تلمح ذلك من بعض مطالع أنى الطبيب ، في مدح كافور ، فإنها تتم عن سخرية ، وتعريض خفي ، وإن لم يكن أحد دون أن المتنبى عقب اتصاله بكافور قد برم به ، أو سخر منه ؛ لأنه كان إذ ذاك موصولاً منه بأمل ، ومحباله لرجاء يحققه ، وغاية ينشدها ، كما يظهر ذلك من قوله :

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَّا تَغْلَطُ الْأَيَّامُ فِيَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضًا تُنَائِي ، أَوْ حَبِيْبًا تُقَرِّبُ ؟
وقوله :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عُلاكَ ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَا ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

فإن من يدرس حياة كافور ، وكيف توصل إلى حكم مصر ، ويقرأ هذه الآيات ، يكاد يوقن أن المتنبي يخفي فيها أشد العجب ، من ارتقاء مثل كافور إلى الملك ، واستوائه على عرش مصر . وقد تكون في الشاعر نزعة قوية إلى الشعر في جهة خاصة ، فيعرض إليها من المؤثرات ما يخمد نارها ، ويطفى أنوارها ، ويطنى عليها سواها من نواحي القول ؛ إلا أن جمراتها المطمورة تحت تراب المؤثرات ، قد ترسل ومضات باهتة في ظلام الحوادث ، تنفذ على ضوءها المتبصر إلى الوقوع على جديد في شاعريته ، ما كان ليظهر بالنظر الطائر ، والدرس السريع .

حكم التاريخ على شعر المتنبي :

والمتنبي من أولئك الذين صدق التاريخ ما سجل الشعر لهم من صفات كثيرة . فإن شعره ينبئك أن الحقد الذي كان يأكل صدور أولئك الذين يسامونه فلا يسمون إليه ، قد جر عليه ويلات كثيرة ، وجرَّعه غصص الهم . وأن نفسه الطموح وروحه الوثاب ، طوَّحاه في كل قطر ، وعرضاه لغول المهالك . وأن معاشته للملوك والأمراء ، طارت بنفسه فوق مستوى من عاصره من الشعراء ؛ وأن انفجاره في حومة الوغى ، ووقوع الطعان والكفاح والغلاب في أفق ناظره هياً له دقة الوصف ، وأمداه بفيض من المعاني والتخيل ، أقدره على إخراج صور فنية عالية ، تمتنع على من عداه . وأن تمرده على عصره ، حدا به إلى التمرّد على شعره ، فأرسله كما يهوى ، لا كما ينبغي . وأنه بشعره بنى الصرح الذي بلغ به أسباب المجد ، وشحذ السيف الذي سقاه كأس المنون . هذه الأمور كلها تتدافع إلى ذهن من يتفحص شعر أبي الطيب ، وتعلق بخاطر من يقرأ تاريخ أبي الطيب ، فقد أدى التاريخ شهادته عليها طبق الشعر ، وأثبت توقيعه في ذيلها .

في شعر المتنبي صور مختلفة ، ملائمة لألوان نفسه ، تمثله أحسن تمثيل : في كبريائه وطموحه ، وتعسفه واضطرابه ، وركوبه رأسه ؛ إلا أن ناحية أخرى من

شعره ، لا تملك القول في أنها كانت صدى لما يجيش بالنفس ، أو تصويراً لما يلهب فيها من عاطفة ، ولهذا كانت مزاجاً من الصباية والتصاني ، والركة والجفوة ، والعمل والطبع ، تلك هي ناحية المرأة ، أو ناحية التغزل بالمرأة ، وهي ناحية لا نكاد نعثر على شاعر من شعراء العربية أغفلها ، حتى المتصوفين والمتشائمين منهم ؛ فهي من النواحي الجديدة بالنظر في دراسة الشاعر . ونحن لا نستطيع القول .

المتنبى عاش حياته ، لم ينبض فؤاده بخفقات الحب ، ولم تسكن المرأة في شعاب قلبه ، وهو شاعر مرهف الحس ، مكتمل الانسانية ، عظيم الرجولة . غير أن التاريخ أثبت للمتنبى من الصفات التي لازمته من حدائته إلى أن لقي حتفه ، ما شغل باله ، وامتلك زمام له ، فلم ينفذ إلى قلبه سحر المرأة ، ولم تلهب فيه عواطف الغرام ؛ لأن نزوعه إلى المجد ، وتطلعه إلى الرياسة لم يدع للمرأة سلطاناً على قلبه ، ولم يشب فيه عواطف الهوى ولوايح الصباية . هذا إلى أن أبا الطيب كان من ذوي المبادئ ، سن لنفسه سياسة خاصة ، وجمع كل جهوده على تحقيقها فعاش يبتغي إليها الوسائل ، ومات ولم يفز منها بطائل ، عاش مشغولاً بالإمارة منهوماً بالملك ، طلبه في البادية فعز فيها طلابه ، وازدهته الخيلاء في حضرة سيف الدولة فردّه على أعقابها ، وخيّل إليه أن في كافور غفلة تنبئ له أن ينتزع منه ولاية ، فرأى في الأستاذ داهية الدواهي ، ثم غادر مصر يجر أذيال الخيبة ، ويلتمس النجاة في جنح الظلام ، وتيه الفياثي والقفار ، إلى أن رمت به الأقدار شريداً بين العراق وفارس ، حتى اغتاله الناقون عليه والموتورون منه .

هذه الحياة الصاخبة الجاحجة المفزعة ، أثبت على المتنبى أن يصغى إلى الحب ، وأن يستجيب إلى صوت العاطفة ، فلم يكن الغزل الصميم من الأغراض التي تشغل باله ، أو تحوّل في صدره .

غزل المتنبى بين العاطفة والتقليد :

وما أثر من غزل المتنبى ، إنما قاله محافظة على عمود الشعر ، وإثارة لآسلوب القدائي . لأن اقتفاء أثر أبي تمام ، ومقامه في البادية ، وتعصبه للعرب ، حبّ إليه اتباع سنن الشعراء الأقدمين . ولقد كان معظم حساده من العلماء والشعراء .

يودون أن يحيد المتنبي قيد شعرة عن عمود الشعر المأثور، فيجمعوا عليه بالنقد والتجريح، ويأخذوه بالزراية والتقييح. ومن أحق من المتنبي بإحياه سنة العرب في شعرهم، وهو العربي لحماً ودماً، والبدوي ثقافة ورواية، والمتنبي في ظل دولة بني حمدان العربية. لهذا كله كان يصطنع الغزل اتباعاً لسنن المتقدمين لاستجابة للعاطفة، ولا تلبية لدواعي النفس. والشعراء - إلا قليلاً منهم - جروا على هذه السنة في بدء القصائد بالغزل، حتى التزم الشعر العربي منذ وجد إلى عهد غير بعيد طريقة واحدة. ولا يخالف هذا الرأي ما ألف من شذوذ المتنبي، فإن هذا الشذوذ كان فيما يعتمد إليه من الغموض والإيهام، أو الخروج على قانون الصرف والإعراب، لكنه كان في الغالب محافظاً على اتباع النظام المأثور للقصيدة والخضوع إلى أحكام هذا النظام.

نموذج غزل المتنبي على حسب ظروف حياته :

على أن هذه الحياة المعقدة الملونة، أثرت في غزل المتنبي، وصبغت بألوانها، كما صبغت سائر شعره، فغزله في صباه، ليس كغزله بعد أن اكتمل عقله وتم فضجه، وغزله في مدح من يحبهم ويرضى عنهم، يختلف عن غزله في مدح من يزدريهم ويشنؤهم، وإنما سيق إلى مدحهم مدفوعاً برغبة الحصول على المال، أو دفع الأذى عن نفسه، فالمتنبي في غزله، هو المتنبي في سائر شعره، فيه الغث والسمين، وفيه الذوق السليم، والخاطر السقيم، وفيه المعنى الشريف، والفكر الدقيق، والمنهج الواضح، وغزله في مدح سيف الدولة الحمداني، وعضد الدولة البويهى، كان أقل قدراً وأكثر سقطاً وسخفاً من الغزل الذى قاله في مدح كافور وأبي العشائر وأبي شجاع فانتك، ومن إليهم من طبقة الأمراء أو القواد الذين كانوا أقرب إلى نفسه، وأدنى إلى مرتبته. فإذا أردنا أن نلتمس العلة لذلك رأيناه في شبابه كان يتناول إلى ما يجول في ذهنه من المعاني، فتقصر عن تحديدها قوالب اللفظ، لأن ملكة النظم لم تسلس قيادها له، ومسالك التعبير لم تذلل لمقرئته ولسانه، وقد يرفع نفسه إلى ما وراء مقدورها، ويكلف سجيته ما ليس

في طبعها ، من التألق في الخطاب ، وتوخى مواضع الإحسان والإعجاب ، فيقع له من السفساف ما لا يتصور أن يصدر مثله من أقل الشعراء .

والمتنبى في صباه قد ضم ثيابه على الغرور ، وأعجب كل الإعجاب بما يبدو من خاطره ، فلا يسمح أن ينظر فيه بنقد أو تغيير ، فجاء الكثير من شعره مستغلق المعنى ، خفى الغرض ، لا لأنه كان عميق الخيال ، دقيق الفكر ، بل لأنه ضعيف التأليف ، مضطرب التعبير ، ولهذا قال الواحدى : لو طرح المتنبى شعر صباه من ديوانه لكان أولى ، وسأقدم لك بينة من هذا الشعر تدعم ما أرى ، ولن ألبأ إلى ما شاع من شذوذ المتنبى . وما اشتهر من إبهامه على ألسنة الأدباء ، لاستجرك إلى التصديق ، وأبعث فيك النفور منه ، واكن ها هي ذى آيات في صدر قصيدة مدح بها على بن منصور الحاجب ، واستجادها السامعون ، وأجيز عليها بدينار واحد من المندوح ، لأنه لم يكن من الذين يستطيعون الشعر ، أو يتذوقون حلاوته . والمعنى الذى تدور عليه هذه الآيات هو (أنه فداء الحسان اللاتى رحلن عنه يخطرن في جلايب الحرير ، وجعلن وجناتهن الوردية تسلب عقله وقلبه ، فأسرن الشجاع الجرمى الذى كان ينهب الناس ، فأصبح نهبا لهؤلاء الحسان . إنهن يحمين بوصالهن ، ويقتلن بهجرهن ، ويظهرن غرائب الدلال ، وقد أردن أن يقلن لى وهن مرتحات : تفديك نفوسنا ، ولكنهن خفن عين الرقيب ؛ فأسرن إلى ذلك بوضع أيديهن على صدورهن . لقد كنت أخشى على ثغورهن أن تدوب من حر أنفاسى ، فلما ارتحلن عني . ذبت من الشوق إليهن) هذا موجز قصته في هذه الآيات :

بِأَبِي الشَّمُوسِ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبًا	الْأَبْسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيَا
الْمُنْهَبَاتُ عُقُولُنَا وَقُلُوبُنَا	وَجَنَاتُهُنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا
النَّاعِمَاتُ ، الْقَاتِلَاتُ ، الْحَيَا	تُ ، الْمُبْدِيَاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَائِبَا
حَاوَلْنَ تَقْدِيَتِي ، وَخَفْنَ مُرَاقِبَا	فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فَوْقَ تَرَائِبَا
وَبَسَمْنَ عَنْ بَرْدِ خَشِيَّتِ أَذْيَبِهِ	مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي ، فَكُنْتُ الذَّائِبَا

وهي خواطر شاب يغريه من المرأة جلابها ، ووجنتها ونعومتها ، لم يتبكر فيها جديداً ولم يجاوز بها نوازع الشباب ، والافتتان بجسم المرأة واحمرار وجنتها ، تمر منها على أفكار سطحية . لا تبتعد عن أذهان من تعودوا نظم الكلام ، وصبه في مسابك البحور والقوافي ، ولا تهب منها ريح الخيال الرائع . لا تسمع فيها خفقات قلب محب ، أو عاطفة نفس حساسة . وهي آيات خمسة فيها سلع رخيصة لا تروج في سوق الشعر ، ولا يقبلها ذوقه ، فإن الثقل والابتذال يجثمان منها على صدر القارئ من (جلابيا ، وكنت الذائبا) وإن إيهام المعنى ، وكدة الذهن في الوصول إليه ، يذهب بصره حينما يقرأ :

المنهياتُ عُقُولُنَا وَقُلُوبُنَا وَجَنَائِهِنَّ النَّاهِيَاتِ النَّاهِيَا

وإن تكرار منهيات ، وناهيات ، وناهيا ، في بيت واحد يفضُّ إليك الشعر وصناعته ، وقرائته وكتابته ، ولولا أن مثل هذه الآيات تتوشح باسم المتنبي ، ويحيط بها هالة من صيته وجلاله - لما رُزقت بقاء ، ولذهبت كما يذهب الزبد جفاء . ولقد كنا نتمسح بالمعاذير المتنبي في مثل هذا الإسفاف والالتواء والغموض والإيهام ، لو أنه حاول معنى دقيقا ، أو عالج خيالا عميقا ، فاستعصى عليه اللفظ ، ونفر منه البيان ، ولكن ، أي عذر لمن يُردد هذه المعاني التافهة ، ويلقي عليها الغموض بسوء أدائه ، وضعف أسلوبه ؟

نائب أبي تمام في غزل المتنبي :

والقد أساء المتنبي في شبابه إلى شعره ؛ لاتباعه سنن أبي تمام ، وتوخي طريقته ، وترسم آثاره ، والطبع على غرارهِ . لأن شهرة أبي تمام في هذا العهد قد طبقت الآفاق ، وملاّت سمع الزمان ، ومنزلته بين أهل اللغة والأدب في هذا العصر ، لا يطمح إليها إلا كل بعيد الهمة ، فسيح أفق الأمل ، كالمثني . ومن ذا يتعلق بأذيال الشهرة ، ويركب إليها ظهر كل شمس وذلّول غير المتنبي ؟ لقد كان أبو تمام يتحذق في أسلوب الخطاب ، ويرسل فيه صوت الطبل ؛ خصوصا في مطالع القصائد .

في قوافيها قلقة ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبي يسف ويسف ، ويتخبط في غزله ويضعف ، إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويحيد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر ويبتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى في ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبي ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدريها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه في أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته ، على أن توقن بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحي والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبي أحب أو لم يحب ، مادنا تقع في كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقي ، فترى له في بيتين متاليين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه مما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبي كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من تأثره بأبي تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثاني منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل ، لارابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة في نسجه وسبكّه ؛ على حين ترى البيت الثاني يهتز فرحا ومرحا في شطره الأول ، ويتماسك رصانة وجزالة في البيت الثاني ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه في لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول في الشرح والتعليق ، وتلك آياته التي أعنى :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيجُ	أَغْذَاءُ ذَا الرَّشَاءِ الْأَغْنُ الشَّيْخُ ؟
لَعِبَتْ بِمَشْيَيْهِ الشُّمُولُ ، وَغَادَرَتْ	صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !
مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظَّهُ فَتَضَرَّجَتْ	وَجَنَاتُهُ ، وَفُؤَادِي الْمَجْرُوحُ

مسمعك ، فلن تجد شيئا . وكان أبو تمام رجلا فخلا ، زأخر البحر ، لا يعظم عليه أن يقيم لك الدنيا ويقعدها بألفاظه ؛ إذا كان مدوحه لا يملأ نفسه ، ولا يدخل في قلبه ، وهذا أبو المغيث ، قد لطحه أبو تمام بهجائه ، وأقذع في تجريحه ، ثم عن له أن يسترضيه ويمدحه ؛ ليصلح من نفسه ، ويستل من ضغنه . فمدح عليه طبول الألفاظ ، ورعود الأساليب ؛ لأن المعاني لا تصدقه ، والخيال لا يواتيه . ولقد أراد السيد المتنبي أن يعارض أبا تمام في هذه القصيدة في مدح محمد بن زريق الطرسوسي فقال :

هَذِي ، بَرَزْتُ لَنَا ، فَهَجَّتْ رَسِيْسَا ثُمَّ انْتَنَيْتِ ، وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا
وَجَعَلْتِ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي فِي الْكَرَى وَتَرَكْتِنِي لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيْسَا
قَطَعْتِ ذِيَاكَ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ وَأَدْرَتِ مِنْ خَمْرِ الْفِرَاقِ كُثُوْسَا
إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً - فَإِنَّ مَدَامِعِي تَكْفِي مَزَادَ كُمْ ، وَتُرْوِي الْعِيْسَا
حَاسًا لِمِثْلِكَ أَنْ تَكُونَ بِخَيْلَةٍ وَلِمِثْلِ وَجْهِكَ أَنْ يَكُونَ عَبُوْسَا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكَ أَنْ يَكُونَ مُمْنَعًا وَلِمِثْلِ نَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ خَسِيْسَا
خَوْذُ جَنَّتِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَازِلِي حَرِيَا ، وَغَادَرَتِ الْفَوَادُ وَطِيْسَا
بِيَضَاءٍ يَمْنَعُهَا (تَكَلَّمَ) دَلْهَا تَبِيهَا ، وَيَمْنَعُهَا الْحِيَاءُ تَمِيْسَا
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَايِنُوْسَا

ما كان أغناك يا أبا الطيب عن التردى في حفرة التقليد ، لقد أصبحت غرابا وأنت قطاة ، إن لك من حدة الذهن ، وسجية النفس ، وسرعة الخاطر ما يلبسك ثوب الشاعر ، فكيف تسير في فيافي أبي تمام ، وتسرى في دجاءه ، وهو الذي لقح الشعر في زمانه بلباق الفساد ، وأفشى فيه جراثيم الصناعة ، لقد طرت في جوه فلم ترتفع إلى سمائه ، وإن كنت في قصيدتك أبين منه شاعرية ، وآنس

وكان مولعا بالتنقيب عن حوشى الألفاظ ، والبحث فى زوايا الإغراب ،
 فيثير منها الصيغ الشاذة ، والتراكيب الجافية ، ثم يتخذ من البديعيات والزينة
 اللفظية مرام تلين هذه الجفوة ، وتخفف من وقع هذه الكزازة ، فأراد المتنبي
 أن يكون كذلك ، حتى يقول الناس : إن أبا تمام بعث من مرقده ، فى أسلاخ
 المتنبي وأجلاده ، فاشتد طلبه للصنعة اللفظية ؛ اقتداء بأستاذه ، إلا أن المتنبي لم
 يكن فى سجيته قبول هذا المسلك ، لما كان عنده من بدهاة الخاطر ، وحدة البادرة ،
 فأضرب به التكلف والتعمل ، وسنعرض عليك صوره غزلية من قصيدتين متحدتين
 فى الوزن والروى ، ترى فيها مقدار ما أساء المتنبي إلى طبعه ، وأزرى بشاعريته ،
 حينما قسرها على التقليد ، وهبط بها فى مهوى المحاكاة :

قال أبو تمام يمدح أبا المغيث موسى ، بعد هجائه : —

أَفْشَيْبَ رَبْعَهُمُ أَرَاكَ دَرِيسَا	وَقِرَى ضِيُوفِكَ لَوْعَةً وَرِيسَا
وَلَبْنُ حُسْنَتٍ عَلَى الْبَلْبِ - لَقَدْ اغْتَدَى	دَمْعَى عَلَيْكَ إِلَى الْمَمَاتِ حَبِيسَا
قَدِمًا ، كَأَن أُمَيْمَ كَانُوا سَاكِنَا	لَكَ ، وَالْعَالِيقُ الْإِلَى ، وَجَدِيسَا
وَأَرَى رَسُومَكَ مَوْحِشَاتٍ بَعْدَمَا	قَدْ كُنْتَ مَأْلُوفَ الْمَحَلِّ أُنَيْسَا
وَبَلَاغَةً ، حَتَّى كَأَن قَطِينَهَا	حَلَفُوا يَمِينَا أَخْلَقْتِكَ غَمُوسَا
أَتُرَى الْفِرَاقَ يَظُنُّ أَنَّى ذَاهِلٌ	عَنهُ ، وَقَدْ لَمَسْتُ يَدَاهُ لَمِيسَا
رُؤُودٌ ، أَصَابَتْهَا النُّوَى مِنْ خُرْدٍ	كَانَيْتَ بِدُورِ دَجْنَةٍ وَشُمُوسَا
يَبِضُّ يُدِرِّنَ عَيُونَهُنَّ إِلَى الصَّبَا	فَكَأَنَّهُنَّ بِهَا يَدْرِنَ كَتُوسَا
وَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى	وَجَنَاتِهِنَّ ضَحَى أَبُو قَابُوسَا
قَدْ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهِجَةً	وَدَدًا ، وَحَسَنًا فِي الصَّبَا مَغْمُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا ، وَأَنَّى لَا أَرَى	عَرِشًا لَهَا ، لَظَنَّتْهَا بَلْقِيسَا

ماذا تسمع من هذا الشعر ، وماذا ترى ؟ تسمع قعقعة ولا ترى طحنا ،

يطرق سمعك جرس ودريسا ، وريسا ، وبلاغا ، والعاليق الالى ، وجديسا ،
 وبدور دجنة ، وشموسا . فتظن أنك تسمع شيئا ، فإذا سكن هذا الطنين حول

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ سَدَّ مَسَامِعِي عَنْ الْعَذْلِ، حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ
كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي، فَبَيْنَهُمَا فِي كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ
أَحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مِثَابَةٌ وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

ألا ترى أنك حينما تقرأ هذه القطعة ثم تقرأ القطعة السينية السابقة ، تزعم أن المتنبي قد لبس بردين ، وتقمص شخصيتين ، وأنه في القطعة الأولى من سُرَّاق القوافي ، المتطفلين على موائد غيرهم ، والمتحلين للصبابة والغرام ، وأنه من الذين يقيمون هيكل القصائد من أحجار صماء ، لاهية في جسمها ، ولا مام في وجهها ؟ هذا إلى فساد المعنى ، واضطراب المبنى ، وغثاء اللفظ ، وسقم الأداء . وهو في القطعة الثانية محب تجده صادق الحب ، يصدر عن معين النفس وفيض الخاطر . وينساب منه القول ، انسياب العذب الزلال الصافي على حصاء كالدرر ، فهذه ساهرة بصفائها ، وتلك فاتنة ببياضها . وقد أجرى قصة هذه الآيات حول اللحاظ الفاتكة ، والأحداق القاتلة ، التي أصابته فأردته ، وامتزجت نصالها بلحمه ودمه ، فاصبح أسيرا لها ، مشغولا بها عن سواها ؛ حتى احتل السقم كل جزء من جسمه ، وأصبح للحظ شديد السطوة ، قوى الشر ، كأنه الرقيب يقتحم المنزل ، ويهتك الستر على حين غفلة ، أو العدو تثير الريبة حفيظته ، وتبعث تقمته ، وهو إلى هذا العذاب الذي يلقاه من سهام طرفها ، لا يسمع فيها لوم عاذل ، أو قول كاشح ، ولكن الأنين الذي ينبعث من أعماق قلبه ، وصميم نفسه ، يهتف بفؤاده وبجحيته ؛ لأن كليهما يمتزج بالآخر امتزاجا ، لا يفصله عدل أو ملام ، فكأنها سيطرت على كل حواسه ، فسدت عن العذل مسامعه ، وحالف السهد مقلته ، وهو لم يذكر لك منها غصن البان ، والردف الثقيل ، والخضر النحيل ، ولم ينق رضاها ولم تطربه منها وسوسة السوار والخلخال ، إلى غير هذه الأوصاف الجسمية التي تقرأها لأدعياء الشعر ، كأنهم يصفون دمي الشمع في حانوت مثال ، ولكنها ألوان النفس ، وخفقات القلب ، ورواية الحب العف البريء ، ساقها في لفظ حر وعبارة مصقولة ، هي السحر أو أغرب ، لا ترى

في قوافيها قلّقا ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبي يسف ويسف ، ويتخبط في غزله ويضعف ، إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويحميد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر وبيتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى في ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبي ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدرىها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه في أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يملكك بعد قراءته ، على أن توفق بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحي والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبي أحب أو لم يحب ، ما دمنا نقع في كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تتجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقي ، فترى له في بيتين متتالين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه مما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبي كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من تأثره بأبي تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثاني منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل ، لرابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة في نسجه وسبكه ؛ على حين ترى البيت الثاني يهتز فرحا ومرحا في شطره الأول ، ويتماسك رصانة وجزالة في البيت الثاني ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه في لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول في الشرح والتعليق ، وتلك أياته التي أغنى :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيجُ	أَغْذَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنُ الشَّيْخُ ؟
لَعِبْتَ بِمِشِيَّتِهِ الشَّمُولُ ، وَغَادَرْتَ	صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !
مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظَّتْهُ فَتَضَرَّجَتْ	وَجَنَانَتُهُ ، وَفُؤَادِي الْعَجْرُوحُ

وَرَمَى، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ، فَصَابَتِي
قَرَبَ الْمَزَارِ وَلَا مَزَارَ، وَإِنَّمَا
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفْنَا
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ
وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا
فِيدُ مُسَلَّمَةٍ، وَطَرَفُ شَاخِصٍ
يَجِدُ الْحَمَامَ، وَلَوْ كَوَجْدِي لَا نَبْرَى
سَهْمٌ يُعَذِّبُ، وَالسَّهَامُ تُرِيحُ
يَعْدُو الْجَنَانُ، فَلَنَلْتَقِي، وَيَرُوحُ
تَعْرِضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّضَرُّعُ
نَفْسِي أَسَى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
حَسَنُ الْعَزَاءِ - وَقَدْ جُلِينَا - قَبِيحُ
وَحَشَا يَذُوبُ، وَمَدَمَعَ مَسْفُوحُ
شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنْوَحُ

إنه في البيت الأول يريد أن يقول : ليكن تبريح الهوى وما يلقي العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيفاً مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلي .
أفتظنون هذا الرشاً الذي أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟
كلا ، إنه يأكل من قلبي ويتغذى بفؤادي حتى أخلني وأمرضني ، فانظر أي مناسبة بين مصراعي هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبي الطيب ؟

ولا يفوتنا - قبل أن نغادر غزل المتنبي في صباه - أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويراً دقيقاً ، يجمع شتى المعاني في بيت واحد ، ويطورها تحت كلمات قليلة ، وينتقي لها من الألفاظ الموسيقية ما يلائم طبع الموقف الذي يصوره ، ويصوغها في مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز المشاعر وتنعش النفس ، تقرأوها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بان المتنبي في مثل هذه الآيات شاعر روائي ، ومصور موسيقي ، يحكي أن المتنبي برح به الحب ، وأذوى عوده الوجد ، حتى أنبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكريت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت في غيظ وإشفاق : ترى ، من الجاني المتجرم الذي صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلني ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرقت كبدها جزعاً عليه

ورحمة به ، فاجابها المتنبي في ذلة وانكسار ، وقد أنكر جزعها ، واستشفع بحاله اليها : إن من جنى على السقم والنحول هو من يعجب لحالي ، ويشفق بما بي ، هو أنت يا قاتلي ! إن بدع المتنبي وإعجازه يسوق اليك هذه القصة كاملة في بيت واحد :

قَالَتَ - وَقَدْ رَأَتْ أَصْفَرَ أَرَى - مَنْ بِهِ ؟

وَتَنَهَّدَتْ ، فَأَجَبَتْهَا : الْمَتَنَّبِيُّ !

وقد أراد مرة أن يحكى امتناع ظيئته عليه ، ونفورها منه ، وأنه إذا ضاق ذرعا بقنصها ففر منها ، وانتبذ مكانا بعيدا منها ، دنت منه لتخدعه ، وتوقعه في شركها ؛ فإذا هم أن يدنو منها نفرت هي منه وهربت من بين يديه ، فإذا أراد مداعبتها أجفلك وجفت ، وإذا هم أن يقبلها أبت وامتنعت . هذه الصورة العابثة المماثلة الحائرة المستهرة يصورها لك المتنبي في قوله :

أَنَايَتُهُ فَدَنَا ، أَذْنَيْتُهُ فَنَائِي جَمَشَتْهُ فَنِيَا ، قَبْلَتُهُ فَأَبِي !

أرأيت جرس المقاطع ، وحسن المطابقة والمقابلة ، كيف وقع في موضعه وحل في مكانه ؟ وكيف اختار أرق الألفاظ وأسهلها على السمع ، ليصور بها موقف العبث واللغو ، وكيف أنها تطرب وترقص من لا يرقص ؟

هات الراسمة وخذ متحايين في موقف وداع ، فید إلى يد تقبض كل منهما على الأخرى بجمرة وتحرق ، وعین إلى عین ، یقرأ كل منهما في الأخرى لوعة البین وتباريح الفراق ، وهات أشعة إكس ، لترى بها كيف تصطلي الأحشاء بنار الغرام ، ثم هات مندليك وامسح عن عین كل منهما عبرة تترقق ، ودمعة تتحدر ، هات كل أولئك ، فلن تبلغ في دقة تصوير الموقف ما بلغ المتنبي بقوله :

فَيْدٌ مُسَلَّمَةٌ ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ وَحَشًا يَذُوبٌ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحٌ

هناك من المعاني ما يدور في كل خاطر ، ومن الأشباح ما يقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبي الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر في معانيه البديهة ، فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن في أذن السامع كقوله :

وَيَبْسِمَنَّ عَنْ دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِي وَشَحَّتْ بِالْمَبَاسِمِ
أين هذا من غزله في مدح سيف الدولة حيث يقول :

بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحِسَانَ بَغِيرَهَا حَصَى ثُرَيْيَهَا ثَقْبَتُهُ لِلْمَخَانِقِ
سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلْبُلِي مَلِيحَةً عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوْءُ صَادِقِ
سَهَادٍ لِأَجْفَانٍ، وَشَمْسٍ لِنَظِيرِ وَسُقْمٍ لِأَبْدَانٍ، وَمِسْكٍ لِنَاشِقِ
وَأَعْيَدُ يَهْوِي نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ، وَيَهْوِي جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ

في أول بيت من القطعة الأولى ، يتغنى بأن ديار من يحبهن عزيزة منيعة ؛
تحميا الرماح الطويلة ، لا التمام والعود ، فهذا معنى شريف في لفظ ظريف ،
وسبك رصين .

وفي البيت الأول من القطعة الثانية ، حيث يمدح سيف الدولة ، يتغنى بأن
هذه البلاد إذا حمل حصاها إلى النساء الحسان في بلد آخر ، جعلته قلائد ؛ لحسنه
ونفاسته ، فأين هذا المعنى من الذي قبله ؟ وأين التعقيد والاتواء والخفاء في هذا
البيت ، من وضوح أبلج مثل غرة الصبح ، وأشهر من شمس النهار في البيت الذي
قبله ؟ وأين الخيال الرائع والأنوثة الفاتنة ، والانسجام العذب الذي يلقاك
حينما تقرأ :

حِسَانُ الثَّنْيِ يَنْقُشُ الْوَشْيَ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنٌ فِي أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ
وَيَبْسِمَنَّ عَنْ دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِي وَشَحَّتْ بِالْمَبَاسِمِ
ألا ترى أن ، الثنْيِ والوشى والدر والتراقى والمباسم ، كلها خلقت للغزل
وصيغت من معدن الرقة . فإذا وضعتها إلى جانب ما في الآيات الأخرى من
قطر بلي وكاذب وناشق وعاقل وفاسق ، أيقنت أن المتنبي غير شاعر فيها وأنه
يصدر عن غير طبع . وأكثر ما قال في سيف الدولة من غزل لا يخلو كما قلت من
الألفاظ البدوية كقوله :

ذِكْرُ الصَّبَا وَمَرَاتِعِ الْآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

يزعم - وهو في صحة سيف الدولة ؛ ذلك بانه كان يقف بباب سيف الدولة ، عند اتصال المتنبي به ، أفاضل العلماء والأدباء والشعراء ، وكلهم حاقده عليه ، لمكانته من الأمير ، وكلهم ملتصق للهنات والسقطات في شعره ؛ هذا إلى أن سيف الدولة نفسه كان أديبا شاعرا ، وأن كثيرا من أهل بيته كانوا أدباء وشعراء ، ومنهم من كان يفوق المتنبي في شعره أحيانا ، ويعرض لشعره بالنقد والتزيف ، كما في فراس ، فكانت هذه الأمور كلها تحمل المتنبي على كد ذهنه ، وشحذ قريحته ، والمبالغة في التحري ، وقسر الالفاظ على ما لا تتحمل من المعاني ، وضغط المعاني تحت ما تكره من الالفاظ ، فتقلب سجيته ضنعة وتكلفا ، ويتورط فيما كان يتوقاه ويدل الناس على عيبه ، ويمهد لهم سبيل نقده . وكان خصوم المتنبي يرغبون في إحراجهم ، فيعمدون إلى الاقتراح عليه أن يمدح سيف الدولة لحادثة تطرا ، أو أمر يحدث ، فلا يسعفه الزمن ، ولا تنيله القريحة ما يريد ، من غزل أو تشبيب ، فيدعو هذا وذاك إلى المديح رأسا ، أو التعرض لذكر الحرب أو الطرد ، أو التعريض بحقد خصومه عليه ، فيعرض مكرها عن الغزل والمديح ، إلى الغرض المقصود . ولقد كان أبو الطيب مفتونا بالبداوة ، شديد الاعتزاز بالعروبة ، وكان سيف الدولة هو الباقي من فلول القوة العربية ، وعليه تعقد الآمال ، وبه يناط الرجاء في إعادة ما اندثر من مجد قومه ، والتسلط على ما تمزق من ملكهم ، فكان المتنبي يشقى فؤاد سيده بذكر الصحراء وما إليها ، بما يرتبط بقومه ، ويتصل بعهدهم السالف . ليعث فيه حمية العصية ، فيذكر الدمن والأطلال ، والركب والآرام ، فلم يوفق المتنبي لارضاء الفن ، لأن المؤثرات التي كانت تحيط به ، وضعت تحت عوامل ترضى الظروف ، وتغضب الشعر ، وتدل على القدرة على نظم الكلام ، وطول البال وسعة الاطلاع على مفردات اللغة ، ولكنها لا تدل على روح شاعر أو طبيعة موهوب ، فأين تشيبيه في مدح الأمير أبي الحسن بن طنج ، قبل أن يتصل بسيف الدولة ، وقبل أن ينتشر في الآفاق صيته حيث يقول : -

دِيَارُ اللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيْزَةٌ بِطُوْلِی الْقَنَا يُحْفَظْنَ ، لَا بِالتَّمَامِ
حِسَانُ التَّنْيِ ، يَنْقُشُ الْوَشْيَ مِثْلَهُ - إِذَا مِسْنَنٌ - فِي أَجْسَامِهِنَّ التَّوَاعِمِ -

وَرَمَى، وَمَارَمَتَا يَدَاهُ، فَصَابَتْنِي
قَرَبَ الْمَزَارِ وَلَا مَزَارَ، وَإِنَّمَا
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفْنَا
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ
وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا
فِيدُ مُسَلَّمَةٍ، وَطَرَفُ شَاخِصٍ
يَجِدُ الْحَمَامَ، وَلَوْ كَوَجْدِي لَا نَبْرَى
سَهْمٌ يُعَذِّبُ، وَالسَّهَامُ تُرِيحُ
يَعْدُو الْجَنَانُ، فَلَنَلْتَقِي، وَيُرْوَحُ
تَعْرِضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّضَرُّعُ
نَفْسِي أَسَى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
حَسَنُ الْعَزَاءِ - وَقَدْ جُلِينَا - قَبِيحُ
وَحَشَا يَذُوبُ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ
شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنُوحُ

إنه في البيت الأول يريد أن يقول : ليكن تبريح الهوى وما يلقي العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيقا مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلي . أفظنون هذا الرشا الذي أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟ كلا ، إنه يأكل من قلبي ويتغذى بفؤادي حتى أنحلني وأمرضني ، فانظر أى مناسبة بين مصراعى هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبى الطيب ؟

ولا يفوتنا - قبل أن تغادر غزل المتنبي في صباه - أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويرا دقيقا ، يجمع شتى المعاني في بيت واحد ، ويطويها تحت كلمات قليلة ، وينتقى لها من الألفاظ الموسيقية ما يلائم طبع الموقف الذي يصوره ، ويصوغها في مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز المشاعر وتنعش النفس ، تقرأها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بان المتنبي في مثل هذه الأبيات شاعر روائى ، ومصور موسيقى ، يحكى أن المتنبي برح به الحب ، وأدوى عوده الوجد ، حتى انبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكرت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت في غيظ وإشفاق : ترى ، من الجانى المتجرم الذى صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلنى ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرقت كبدها جزعا عليه

دِمَنْ تَكَاثَرَتْ الْهَمُومُ عَلَى فِي عَرَصَاتِهَا كَتَاثُرِ اللُّوَامِ
وَكَاَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا تَبْكِي بِعَيْنِي عُزْوَةَ بْنِ حِزَامِ
ومما يسترعى النظر ، أن غزله في مدح ابن العميد كان سخيفا ، فقد كان
يعلم أن ابن العميد أديب شاعر ، وكان هذا العلم يخرج من طبعه ، إلى التكلف
الممقوت ، والصناعة الرخيصة .

وكان يمدح عضد الدولة أيضا مكرها متكلفا ؛ لكرهته الفرس .
وإليك قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ، وهو في الكوفة ، بعد عودته من
مصر ، وهي قصيدة تفيض رقة وسلاسة وحمة واشتياقا ، لأن البعاد أثر فيه ،
والأيام نالت منه ، والغربة هذبت من شموسه وهي :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيَّ يَا رَسُولُ ؟ أَنَا أَهْوَى ، وَقَلْبُكَ الْمَتَّبُولُ !
كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثَ إِلَيْهَا غَارَ مِنِّي وَزَادَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ يَبْنَى الْأَمَانَاتِ عَيْنَا هَا وَخَانَتْ قُلُوبُهُنَّ الْمُقُولُ
تَشْكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنَ أَلَمِ الشَّوْقِ قِ إِلَيْهَا ، وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ
زَوْدِنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَاذَا مَ فَحَسَّنُ الْوُجُوهَ حَالُ تَحْوُلُ
إن ذكرى الماضي وما عانى المتنبي في غربته ، ذلكت من جموحه وأذلت
عواطفه ، فصاغ ألحانه في هذه القصيدة من ذوب القلب ، وخلاصة الشعور ،
وصميم النفس .

« خلاصة القول »

١ - أن شعر المتنبي سجل لتاريخه ، صورة لنفسه ، إلا غزله ؛ فإنه كان
ألوانا على حسب الظروف والأحوال ، ولم يؤثر أنه وقع في شرك الغرام أو لبي
داعي الصباية .

- ٢ -- كان المتنبي في صباه يقلد غزل أبي تمام في أحيان كثيرة، فيتكلف ويسخف، فإذا ما سار وراء طبعه رأيته يرق ويلطف.
- ٣ - للمتنبي في صباه قدرة على تصوير الوداع ولوعة الغرام وعبث الشباب تصويراً دقيقاً لم يسبق إليه، وكان يعتصم بالموسيقى والفن إذا لم يسعفه المعنى الدقيق والخيال العميق.
- ٤ - كانت المنافسة الشديدة بينه وبين الشعراء في بلاط سيف الدولة تحمله على الصنعة والتكلف فيقع في التعقيد.
- ٥ - إن العطاء الجزل، وخلو الجوله في مصر، جعل غزله في كافور من حر القول، وخير القريض، فلما رحل إلى خراسان أعاده الخصوم من الشعراء إلى التكلف.
- و كنت أود لو أجد الوقت والذهن المستريح، لأكتب في غزل المتنبي خيراً من ذلك، ولكنه جهد المقل، وبضاعة المكدود.

حسن علوانه

